



وللرسول فقال: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء.

فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك.

﴿وأنه إليه تحشرون﴾ أي: تجتمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.

﴿وانتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تمم الفاعل وغيره، وتقوى<sup>(٣)</sup> هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن.

﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه.

﴿وإذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن

فهؤلاء شر عند الله من جميع الدواب، لأن الله أعطاهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه وعدموا - بذلك - الخير الكثير، فإنهم كانوا يصدد أن يكونوا من خيار البرية. فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية، والسمع الذي نفاه الله عنهم، سمع المعنى المؤثر في القلب، وأما سمع الحجة، فقد قامت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم فيهم خيراً يصلحون به لسماع آياته.

﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم﴾ على الفرض والتقدير ﴿لتسولوا﴾ عن الطاعة ﴿وهم معرضون﴾ لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه، وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير فيه، الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده. وله الحمد تعالى والحكمة في هذا.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيبكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾ واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نها عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه.

وقوله: ﴿إذا دعاكم لما يحيبكم﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائده وحكمته، فإن حياة القلب والروح، بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام.

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله

التي أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان.

فإذا أدب العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا تضييقاً من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه، لما انهزم لهم راية إلا انهزاماً مستقراً<sup>(١)</sup>، ولا أدب عليهم عدوهم أبداً.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما.

﴿ولا تولوا عنه﴾ أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله، ﴿وأنتم تسمعون﴾ ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال.

﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها، فإنها حالة لا يرضاها الله ولا رسوله، فليس الإيمان بالتمني والتخلي، ولكنه ما وقر في القلوب وصدفته الأعمال.

﴿٢٢-٢٣﴾ ﴿إن شر الدواب عند

الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ يقول تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم ﴿الصم﴾ عن استماع الحق ﴿البكم﴾ عن النطق به ﴿الذين لا يعقلون﴾ ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم،

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: من شرار.

(٣) هكذا في النسختين والمراد ظاهر وهو: أن اتقاء هذه الفتنة يكون بالنهي عن المنكر.

الرابع: الأجر العظيم والشواب الجزيل لمن اتقاه وأثر رضاه على هوى نفسه. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾

﴿٣٠﴾ ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر أيها الرسول، ما من الله به<sup>(٢)</sup> عليك. ﴿إذ يمكر بك الذين كفروا﴾ حين تشارر المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يشبوه عندهم بالخبيس ويوتقوه.

﴿وما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من شره.

﴿وما أن يخرجوه ويجهلوه من ديارهم.

فكل أيدى من هذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيهم على رأي: رآه شريرهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فنى ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل فيرضى بنو هاشم [ثم] يديه، فلا يقدرين على مقاومة سائر<sup>(٣)</sup> قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليوقعوا به إذا قام من فراشه.

فجاءه الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذُرَّ على رؤوسهم التراب، وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه جاءهم آت وقال: خيبكم الله، قد خرج محمد وذُرَّ على رؤوسكم التراب.

فنفذ كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج

الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الشواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الوبيل، وصار خائناً لله وللمرسول ولأمانته، متقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

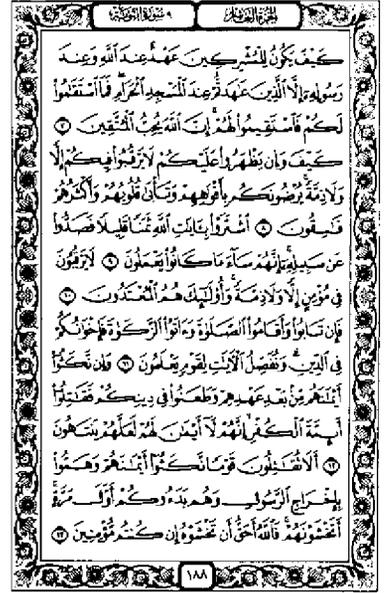
﴿وما كان العبد محتجناً بأمواله وأولاده، فربما حمله حجة<sup>(٤)</sup> ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتي الله بها عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطها، وترد لمن استودعها﴾ وأن الله عنده أجر عظيم﴾

فإن كان لكم عقل ورأي، فأتروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

﴿٢٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع. يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.



يشخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ يقول تعالى ممتناً على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكشيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة.

﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تخافون أن يشخطفكم الناس﴾ أي: يأخذونكم.

﴿فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات﴾ فجعل لكم بلداً تآرون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على منته العظيمة وإحسانه الشام، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما اتصنهم الله عليه من أوامره ونواهي، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

(١) في ب: محته.

(٢) في النسخين: ما من الله بك عليك.

(٣) في ب: جميع.

مستخفياً منهم، خائفاً على نفسه . فسبحان اللطيف بعبد الذي لا يغالبه مغالب .

﴿٣١-٣٤﴾ وقوله : ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾

هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿ يقول تعالى في بيان عناد الكاذبين للرسول ﷺ : ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا الدالة على صدق ما جاء به الرسول .

﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا على ذلك، وتبين عجزهم .

فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه الواقع، وقد علم أنه ﷺ أني لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد .

﴿وإذا قالوا اللهم إن كان هذا الذي يدعو إليه محمد ﴿هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب .

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتصويبات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه، قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم .

فمد قالوا : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما أبقى منهم باقية، ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ فوجوده ﷺ بين أظهرهم أتمه لهم من العذاب .

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله [تعالى فهذا] قال تعالى : ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ .

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعدما انعقدت أسبابه، ثم قال : ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ أي : أي :

شيء يمنهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدهم النبي ﷺ وأصحابه، الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال : ﴿وما كانوا﴾ أي : المشركون ﴿أولياءه﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي : أولياء الله . ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي : وما كانوا أولى به من غيرهم ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتروحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين، ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ولذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمراً غيرهم أولى به .

﴿٣٥﴾ ﴿وما كان صلاحهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ يعني أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذي يصدون عنه، فما كان صلاحهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إلا مكاء وتصدية﴾ أي : صغيراً وتصديقاً، فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام



لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف بمقية العبادات !؟

فبأي : شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين الذين هم في صلاتهم معرضون، إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة .

لا جرم أورثهم الله بيته الحرام، ومكنهم منه، وقال لهم بعدما مكن لهم فيه ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وقال هنا : ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴿ يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم، ومبارزتهم لله ورسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فقال : ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن

يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير \* إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم \* يقول تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً، ﴿فإن لله حصة﴾ أي: وبقية لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها، فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للراجل سهم، وللفارسان سهمان لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله، فإذا لم يعين الله له مصرفاً، دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخمس الثاني: للذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

والخمس الثالث: لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عماجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم.

والخمس الرابع: للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل، وهو<sup>(٢)</sup>: الغريب المنقطع به في غير بلده، أو بعض المفسرين يقول إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك

مولاكم نعم المولى ونعم النصير \* هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا﴾ عن كفرهم، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له.

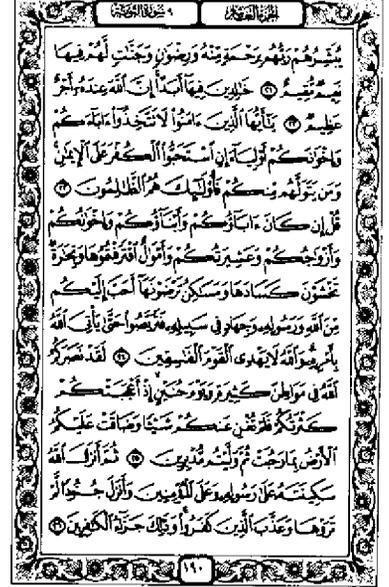
﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ منهم من الجرائم ﴿وإن يعمدوا﴾ إلى كفرهم وعنادهم ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ بإهلاك الأمم المكذبة، فليستظروا ما حل بالمعاندن، فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون، فهذا خطابه للمكذبين، وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين، فقال: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي: شرك وصد عن سبيل الله، ويدعنا لأحكام الإسلام، ﴿ويكون الدين كله لله﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العلي على سائر الأديان.

﴿فإن انتهوا﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ لا تحفى عليه منهم خافية.

﴿وإن تولوا﴾ عن الطاعة أو وضعوا في الإضاعة ﴿فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى﴾ الذي يتولى عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم، وييسر<sup>(١)</sup> لهم منافعهم الدينية والدنيوية، ﴿ونعم النصير﴾ الذي يتصرم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار.

ومن كان الله مولاة وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عز له ولا قائمة له.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ فإن لله حصة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا



سبيل الله \* أي: ليطلوا الحق وينصروا الباطل، ويبطل توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان.

﴿فسيفقونها﴾ أي: فسيصدرون هذه النفقة، وتحف عليهم لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ستكون عليهم حسرة، أي: ندامة وخزياً وذللاً، ويغلبون فتذهب أموالهم وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي: يجمعون إليها، ليدوقوا عذابها، وذلك لأنها دار الخبيث والخبثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحدة على حدة، وفي دار تخصصه، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، من الأعمال والأموال والأشخاص. ﴿فيركمه جميعاً فيجعلهم في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعمدوا فقد مضت سنة الأولين﴾ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير \* وإن تولوا فاعلموا أن الله

(٢) في ب: وهم.

(١) كذا في ب، وفي أ: ويسر.





حسنها في قلوبهم وخذعهم. ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ فإنكم في عُدَدٍ وَعُدَدٍ وَهَيْئَةٍ لا يقاومكم فيها محمد ومن معه.

﴿وإني جار لكم﴾ من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلتهم، لأن إبليس قد تبدى لقريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد قادرين.

﴿فلما تراءت الفئتان﴾ المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع الملائكة خاف خوفاً شديداً و ﴿نكص على عقبيه﴾ أي: ولى مديراً، ﴿وقال﴾ لمن خدعهم وغرهم: ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون﴾ أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿إني أخاف الله﴾ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿والله شديد العقاب﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان، قد سول لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار لهم، فلما أوردتهم مواردهم، نكص عنهم، وتبرأ منهم، كما قال تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدتين فيها وذلك جزاء الظالمين.

﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين حين أقدموا - مع قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم.

﴿غرّه هؤلاء دينهم﴾ أي: أوردتهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها، يقولونه احتقاراً لهم واستخفافاً لعقولهم، وهم - والله - الأَخْفَاءُ عقولاً، الضعفاء أخلاماً.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمشقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان وانقأ بره، مطمئن القلب لا فرعاً ولا جباناً، ولهذا قال: ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عظيم﴾ لا يغالب قوته قوة، ﴿حكيم﴾ فيما قضاه وأجره.

﴿٥٠ - ٥٢﴾ ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿كذب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كرمهم، و ﴿الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمنعة مستصيبة على الخروج، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي: العذاب الشديد المحرق، ذلك العذاب حصل لكم، غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت، وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، فإن دأب هؤلاء المكذبين أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم.

﴿كذب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ من الأمم المكذبة ﴿كفروا بآيات الله فأخذهم الله﴾ بالعقاب ﴿بذنوبهم﴾، إن الله قوي شديد العقاب لا يعجزه أحد يريد أخذه

﴿ولا تنازعوا﴾ تنازعاً يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ﴿فتفشلوا﴾ أي: نجبنوا ﴿وتذهب ربحكم﴾ أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله.

﴿واصبروا﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿إن الله مع الصابرين﴾ بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا لربكم واخضعوا له.

﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله﴾ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم لقصد الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم.

والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه، ﴿والله بما يعملون محيط﴾ فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصل لجنات النعيم.

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾

﴿ما من دابة إلا هو آخذ ناصيتها﴾ .

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿ذلك بأن الله لم يك

مغفراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغفروا

ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم \*

كذاب آل فرعون والذين من قبلهم

كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم

وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴿

ذلك﴾ العذاب الذي أوقعه الله

بالأمم المكذبين<sup>(١)</sup>، وأزال عنهم ما هم

فيه من النعم والتعظيم، بسبب ذنوبهم

وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك

مغفراً نعمة أنعمها على قوم من نعم

الدين والدنيا، بل يبقئها ويزيدهم

منها، إن ازدادوا له شكراً، ﴿حتى

يغفروا ما بأنفسهم﴾ من الطاعة إلى

المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها

كفراً، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم

كما غيروا ما بأنفسهم .

والله الحكمة في ذلك والعدل

والإحسان إلى<sup>(٢)</sup> عباده، حيث لم

يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب

قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من

النكال إذا خالفوا أمره .

﴿وأن الله سميع عليم﴾ يسمع جميع

ما نطق به الناطقون، سواء من أسر

القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي

عليه الضمائر، وتحففيه السرائر،

فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه

علمه وجرت به مشيئته .

﴿كذاب آل فرعون﴾ أي : فرعون

وقومه ﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات

ربهم﴾ حين جاءتهم ﴿فأهلكناهم

بذنوبهم﴾ كل بحسب جرمه .

﴿وأغرقنا آل فرعون وكل﴾ من

المهلكين المعذبين ﴿كانوا ظالمين﴾

لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم

يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم

اقتترفوه، فليحذر المخاطبون أن

يشابهوه في الظلم، فيحل الله بهم

من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين .

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿إن شر الدواب

عند الله الذين كفروا فهم

لا يؤمنون \* الذين عاهدت منهم ثم

ينقضون عهدهم في كل مرة وهم

لا يتقون \* فإما تثقفنهم في الحرب

فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون﴾

هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال

الثلاث : الكفر، وعدم الإيمان،

والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد

عاهدوه ولا قول قالوه، هم شر

الدواب عند الله فهم شر من الحمير

والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم

منهم، والشر متوقع فيهم، فإذا هاب

هؤلاء ومخبتهم هو المتعين، لثلاث يسري

داؤهم لغيرهم، ولهذا قال :

﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي :

تجدنهم في حال المحاربة، بحيث

لا يكون لهم عهد وميثاق .

﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي : نكل

بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما

يصيرون [به] عبدة لمن بعدهم

﴿لعلهم﴾ أي : من خلفهم

﴿يذكرون﴾ صنيعهم، لثلاث يصيهم ما

أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات

والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب

لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل

وزجرأ لمن عملها أن لا يعاودها .

ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب

أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع

الغدر - أنه إذا أعطى عهداً لا يجوز

خيانته وعقوبته .

﴿٥٨﴾ ﴿وإما تخافن من قوم خيانة

فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب

الخائنين﴾ أي : وإذا كان بينك وبين قوم

عهد وميثاق على ترك القتال فحفت

منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن

أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير

تصريح منهم بالخيانة .

﴿فانبذ إليهم﴾ عهدهم، أي : ارمه

عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك

وبينهم ﴿على سواء﴾ أي : حتى

يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا

يجل لك أن تغدرهم، أو تسعى في

شيء مما منعه موجب العهد، حتى

تخبرهم بذلك .

﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ بل

يبغضهم أشد البغض، فلا بد من أمر

يُبَيِّن يبرئكم من الخيانة .

ودلت الآية على أنه إذا وجدت

الخيانة المحققة<sup>(٣)</sup> منهم لم يحتج أن ينبذ

إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل

علم ذلك، ولعدم الفائدة لقوله :

﴿على سواء﴾ وهنا قد كان معلوماً عند

الجميع غدرهم .

ودل مفهومها أيضاً أنه إذا لم يخف

منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل

على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم،

بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته .

﴿٥٩﴾ ﴿ولا يحسبن الذين كفروا

سبقوا إثمهم لا يعجزون﴾ أي : لا

يحبس الكافرون بربهم المكذبون بآياته،

أنهم سبقوا الله وفاتوه، فإثمهم

لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد .

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم

وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من

جلتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم،

وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما

يصلون به إلى المنازل العالية، واتصافهم

بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره

بالغيها، فلماذا قال لعباده المؤمنين :

﴿٦٠﴾ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم

من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به

عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم

لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من

شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم

لا تظلمون﴾ أي : ﴿وأعدوا﴾

لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم

وإبطال دينكم، ﴿ما استطعتم من

قوة﴾ أي : كل ما تقدرون عليه من

القوة العقلية والبدينية وأنواع الأسلحة

(١) في ب : المكذبة .

(٢) كذا في ب، وفي أ : على .

(٣) زيادة يقتضيا السياق ليست في النسختين .

(٤) في ب : المحقة .

سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن قبضهم لنصرك.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واثتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسمي أحد، ولا بقوة غير قوة الله، فلو أنفقت ما في الأرض جميعاً من ذهب وفضة وغيرهما لتألفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة ﴿مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿وَأذَكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ﴿وَمَنْ آتَبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِثَّةِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ \* الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴿يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وأنضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط همهم، من الرغبة في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل

فاجتج لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم \* وإن يريدوا أن يمددوك فإنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين \* وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم \* يا أيها النبي حَسْبُكَ اللَّهُ ومن آتبعك من المؤمنين ﴿يَقُولُ تَعَالَى﴾ ﴿وَأِنْ جَنَّحُوا﴾ أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا ﴿لِلسُّلْمِ﴾ أي: الصلح وترك القتال.

﴿فَاجْتِجْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبستدين في ذلك، كان أولى لإجابتهم. ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعل علىه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحيثما يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَأِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق [لك] من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فقد ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ أي: أعانك بمعونة

ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرُئي، والشجاعة والتدبير.

ولهذا قال النبي ﷺ: ﴿أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرُّيَّةَ﴾ ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ رِيَاطَ الْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته.

فإذا كان شيء موجوداً<sup>(١)</sup> أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن «ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب».

وقوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ من تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَأَخْرَجِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ من سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله، تضاعف إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ أي: لا تقصون من أجرها وثوابها شيئاً.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وَأِنْ جَنَّحُوا لِلسُّلْمِ﴾

(١) في السختين: إذا كان موجوداً شيئاً.

الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إن تكونوا تأمنون فإنهم يأمنون كما تأمنون وترجون من الله ما لا يرجون﴾.

﴿إن يكن منكم﴾ أيها المؤمنون ﴿عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿قوم لا يفقهون﴾ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والذب عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواعٍ للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد، فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ فلذلك اقتضت رحمة وحكمته التخفيف، ﴿فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بعونه وتأييده.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا القدر المعين يغلبون ذلك القدر المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المئة، والمئة من الألف.

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثلهم من الكفار، فإن زادوا على مثلهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على يابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثلهم إذا غلب على ظنهم الضرر<sup>(١)</sup>، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاء عن الأول بأن قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر<sup>(٢)</sup> لازم وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر، نكتة بدیعة لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية لقلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاء عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك [فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل]<sup>(٣)</sup>.

﴿٦٧ - ٦٩﴾ ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾ ﴿لولا كتاب من الله سبق لسكنكم فيما أخذتم عذاباً عظيماً﴾ ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ هذه معاتبية من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال، قتلهم واستئصالهم.

فقال تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ أي:

إِنَّمَا النَّبِيُّ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ لِيُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُ اللَّهِ وَلِيُخَبِّرَ بَيْنَ النَّاسِ مَا بَدَأَ اللَّهُ مِنَ الْخَبْرِ وَأَنَّ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفِيهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١١٣﴾

ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفؤوا نور الله ويسعوا لإخادع دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإيقانهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصوله، فالأرق أن لا يؤسروا.

فإذا أئخنوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإيقانهم.

يقول تعالى: ﴿تريدون﴾ بأخذكم الفداء وإيقانهم ﴿عرض الحياة الدنيا﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

﴿والله يريد الآخرة﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فبأمرهم بما يوصل إلى ذلك.

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: كامل العزة، لو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفضل، لكنه حكيم، يبثي بعضكم ببعض.

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ به القضاء والقدر، أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم - أيها الأمة - العذاب ﴿لمسكم فيما أخذتم عذاباً عظيماً﴾ وفي الحديث: «لو نزل

(٣) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: الأمر.

(١) زيادة من هامش ب.

المال، بأن يبسر لكم من فضله، خيراً وأكثر<sup>(١)</sup> مما أخذ منكم.

﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم، ويدخلكم الجنة وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومنابدتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بكل شيء، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل<sup>(٢)</sup> بكفائتكم شأن الأسرى وشهرهم إن أرادوا خيانة.

﴿٧٢﴾ ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾ هذا عقد موالاته ومحبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وتركوا أوطانهم لله لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكمال إيمانهم وتمام اتصال بعضهم ببعض.

﴿٧٣﴾ ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء لبعض<sup>(٣)</sup>، فلا يواليهم إلا كافر مثلهم.

﴿٧٤﴾ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون فحقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولياء بعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم.

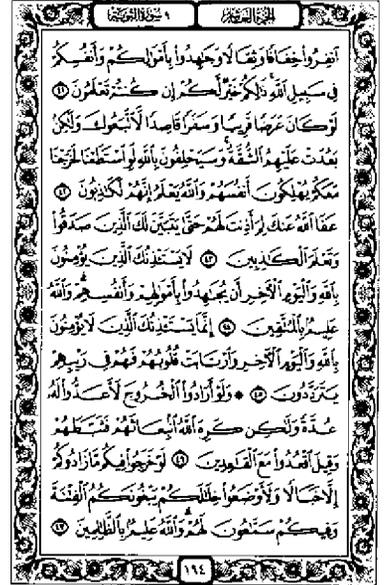
﴿٧٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون فحقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولياء بعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم.

﴿٧٦﴾ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون فحقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولياء بعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم.

(١) في ب: بعض.

(٢) في ب: وقد تكفل.

(٣) في ب: كثيراً.



عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر.

﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم ولم يجعلها لامة قبلها.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ولازموها، شكراً لنعم الله عليكم، ﴿إن الله غفور﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً جميع المعاصي.

﴿رحيم﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم، وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جلتهم العباس عم رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبراً لحاظه ومن كان على مثل حاله.

﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي: من



فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمه أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

﴿٧﴾ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴿٨﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؟!﴾ هل قاموا بواجب الإيمان، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أديتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟

أما سعوا في الأرض فساداً؟ فيحق لهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله.

﴿٩﴾ إلا الذين عاهدتم من المشركين ﴿١٠﴾ عند المسجد الحرام ﴿١١﴾ فإن لهم في العهد وخصوصاً في هذا المكان الفضل حرمة، أوجب أن يراعوا فيها.

﴿١٢﴾ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين ﴿١٣﴾ ولهذا قال:

﴿١٤﴾ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ﴿١٥﴾ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿١٦﴾ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴿١٧﴾ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، ولا يستحقون منها شيئاً، لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسوله، المحاربة الذين يريدون أن يخلوا الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿١٨﴾ واقعدوا لهم كل مرصد ﴿١٩﴾ أي: كل ثنية وموضع يمررون عليه، وربطوا في جهادهم وأبدلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم.

ولهذا قال: ﴿٢٠﴾ فإن تابوا ﴿٢١﴾ من شركهم ﴿٢٢﴾ وأقاموا الصلاة ﴿٢٣﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿٢٤﴾ وآتوا الزكاة ﴿٢٥﴾ لمستحقها ﴿٢٦﴾ فخلوا سبيلهم ﴿٢٧﴾ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم.

﴿٢٨﴾ إن الله غفور رحيم ﴿٢٩﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿٣٠﴾ وإن أحد من المشركين استجارك فآجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴿٣١﴾ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿٣٢﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴿٣٣﴾ أمراً عاماً في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقرب بعضهم جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿٣٤﴾ وإن أحد من المشركين استجارك ﴿٣٥﴾ أي: طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر، لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام.

﴿٣٦﴾ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴿٣٧﴾ ثم إن أسلم فذاك، وإلا فابلغه مأمنه، أي: المحل الذي يأمن فيه، والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون،



عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴿٣٨﴾ أي: هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين. ﴿٣٩﴾ إلا الذين عاهدتم من المشركين ﴿٤٠﴾ واستمروا على عهدهم، ولم يجبر منهم ما يوجب النقض، فلا نقصوكم شيئاً، ولا عاونوا عليكم أحداً، فهؤلاء أمثالهم ﴿٤١﴾ عهدهم إلى مدتهم، قلت أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء.

﴿٤٢﴾ إن الله يحب المتقين ﴿٤٣﴾ الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.

﴿٤٤﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿٤٦﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ﴿٤٧﴾ أي: التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة.

﴿٤٨﴾ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴿٤٩﴾ في أي: مكان وزمان، وخذوهم ﴿٥٠﴾ أسرى ﴿٥١﴾ واحصروهم ﴿٥٢﴾ أي: ضيقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها [الله] معبداً لعباده.

فإخوانكم في الدين ونفضل الآيات لقوم يعلمون ﴿أي﴾: ﴿كيف﴾ يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ بالقدرة والسلطة، لا يرحمكم، و ﴿لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة﴾ أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكم معهم لو ظهروا.

ولا يفرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿يرضونكم﴾ بأفواههم وتأبى قلوبهم ﴿الميل والمجة﴾ لكم، بل هم الأعداء حقاً، البيغضون لكم صدقاً، ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ لا ديانة لهم ولا مروءة.

﴿اشترروا﴾ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والالتقاء بآيات الله ثمناً قليلاً ﴿فصدوا﴾ بأنفسهم، وصدوا غيرهم ﴿عن سبيله﴾، إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة﴾ أي: لأجل عداوتهم للإيمان وأهله.

فألوصف الذي جعلهم ﴿يعادونكم لأجله﴾ وبيغضونكم، هو الإيمان، فذبوا عن دينكم، وانصروه واتخذوا من عاداهم عدواً ومن نصره لكم ولياً، واجعلوا الحكم يدور مع وجوداً وعدمياً، لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعية<sup>(٢)</sup> تميلون بهما، حيثما مال الهوى، وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء، ولهذا: ﴿فإن تابوا﴾ عن شركهم، ورجعوا إلى الإيمان ﴿وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فإخوانكم في الدين ﴿وتناسوا تلك﴾ العداوة إذ كانوا مشركين، لتكونوا عباد الله المخلصين، وبهذا يكون العبد عبداً حقيقياً. لما بين من أحكامه العظيمة ما بين، ووضح منها ما وضع، أحكاماً

وجكماً وحكماً وحكماً وحكمة قال: ﴿ونفضل الآيات﴾ أي: نوضحها ونميزها ﴿لقوم يعلمون﴾، فالإيمان الكلام، وبهم تعرف الآيات والأحكام، وبهم عرف دين الإسلام وشرائع الدين.

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون، ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجودك وكرمك [وإحسانك يا رب العالمين].

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم﴾ فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون \* ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوؤكم أول مرة أتخونهم بالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين \* قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين \* ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ أي: نقضوها وحلوها، فقاتلوهم أو أعانوا على قتالكم، أو نقضوكم، ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي: عابوه وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين، أو إلى القرآن، ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم، ولأن غيرهم تبع لهم، وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.

﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ أي: لا عهود ولا موثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين،

يخونون بالله لكم في ميثاقهم والله كاشف الخصال عما تخونون به ما تكفون ﴿١٢﴾ ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم﴾ أي: نقضوها وحلوها، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون \* ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوؤكم أول مرة أتخونهم بالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين \* قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين \* ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ أي: نقضوها وحلوها، فقاتلوهم أو أعانوا على قتالكم، أو نقضوكم، ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي: عابوه وسخروا منه.

نكثين للعهد، لا يوثق منهم.

﴿لعلهم﴾ في قتالكم إياهم ﴿ينتھون﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه، ثم حث على قتالهم، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم فقال: ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يخلوه ويخرجوه من وطنه وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وهم بدوؤكم أول مرة﴾ حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم، وذلك حيث عاونت<sup>(٣)</sup> قريش - وهم معاهدون - بني بكر حلفاءهم على خراعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.

﴿أتخونهم﴾ في ترك قتالهم ﴿فإنه﴾ أي: أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴿فإنه﴾ أي: أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.

فإن كنتم مؤمنين فامثلوا لأمر الله، ولا تخشوهم فتركوا أمر الله، ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من

(١) في النسختين: جعلوهم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في ب: طبعية.

(٣) في ب: أعانت.

(٤) في ب: فإله.



الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم، فقال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ بالقتل ﴿ويجزهم﴾ إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿وينصركم عليهم﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها.

﴿ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ فإن في قلوبهم من الخنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من النغم والهجم، إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالاً للغيظ الذي في قلوبهم، وهذا يدل على عبة الله لعباده المؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

ثم قال: ﴿ويشوب الله على من يشاء﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوفقهم للدخول في الإسلام، ويزينه في قلوبهم، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿والله عليم حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطغيانه.

﴿١٦﴾ ﴿أم حسبتم أن تتركوا وما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم

يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد: ﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب.

﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أي: علماً يظهر مما في القرة إلى الخارج، ليرتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي: ولياً من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرح الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويمجازيكم على أعمالكم خيرا وشرها.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حيطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ إنما يعمروا مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعمسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ يقول تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾ بالعبادة والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرتهم، وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل.

فإذا كانوا شاهدين على أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عمارة مساجد الله، والأصل منهم

مفقود، والأعمال منهم باطلة؟! لهذا قال: ﴿أولئك حيطت أعمالهم﴾ أي: بطلت وضلت ﴿وفي النار هم خالدون﴾.

ثم ذكر من هم عمارة مساجد الله فقال: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة﴾ الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن.

﴿وآتى الزكاة﴾ لأهلها ﴿ولم يخش إلا الله﴾ أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة.

فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمارة المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها.

﴿فعمسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ و«عمسى» من الله واجبة. وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمارة مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يسترون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون \* يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم \* خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم \* لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ أي: سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم، أنه المراد ﴿وعمارة المسجد

في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كد.

﴿وتجارة تخشون كسادها﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك.

﴿ومساكن ترضونها﴾ من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فأنتم فسقة ظلمة.

﴿فتربصوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب حتى يأتي الله بأمره الذي لا مرد له.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على عجة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على عجة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله.

وعلاوة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبواً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم تارك لما يجب عليه.

﴿٢٥-٢٧﴾ ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ثم ولستم مدبرين﴾ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين \* ثم يتوب الله من بعد ذلك

واحدة منها لوسعتهم. ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبغون عنها جواً، ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ لا تستغرب كثرته على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به.

﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أول وأخرى، فلا تتخذوهم ﴿أولياء إن استحبوا﴾ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿الكفر على الإيمان﴾.

﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ لأنهم تجرؤوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتحادهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله، يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما، فقال: ﴿قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأبناؤكم وإخوانكم﴾ في النسب والعشرة<sup>(١)</sup> ﴿وأزواجكم وعشيرتكم﴾ أي: قراباتكم عموماً ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي: اكتسبتموها وتعبتم

الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله.

فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال وتزكو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم﴾ بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿وأنفسهم﴾ بالخروج بالنفس ﴿أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المهروب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

﴿يشرهم ربهم﴾ جوداً منه، وكرماً وبراً بهم، واعتناء ومحبة لهم، ﴿برحمة منه﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم [بها] كل خير. ﴿ورضوان﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ من كل ما اشتتهه الأنفس، وتلد الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، السذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة

(١) في ب: والعشيرة.

لا في الصلاة، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة»، فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وليس المراد هنا نجاسة البدن، فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب<sup>(١)</sup> منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم يتقل عنهم أنهم تقذروا منها، تقذّرهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وإن خفتهم﴾ أيها المسلمون ﴿عيلة﴾ أي: فقراً وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، ومحل واحد، بل لا يتعلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إن شاء﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهدأ علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إن الله عليم حكيم﴾ أي: علمه

وسعتها، ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي: منزهين.

﴿ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين﴾ والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت الفلأقل والزلازل والمقطعات، مما يثبتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد.

﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يشبتونهم ويبشرونهم بالنصر.

﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسايتهم وأولادهم وأموالهم.

﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ فتاب الله على كثير من كانت الواقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم وأولادهم.

﴿والله غفور رحيم﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم وقبول توباتهم، فلا يياسن أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿٢٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نجس﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي: نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تنفي عنه شيئاً!!

وأعمالهم ما بين محاربة الله، وصد عن سبيل الله، ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض

على من يشاء والله غفور رحيم﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواقع الحروب والهيजा، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبتها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة.

فلما التقواهم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهمزوا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مئة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسايتهم وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الواقعة بين مكة والطائف.

﴿إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ أي: لم تفدكم شيئاً، قليلاً ولا كثيراً ﴿وضاقت عليكم الأرض﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمتكم ﴿بما رحبت﴾ أي: عل رحبتها

(١) الجملة غير واضحة في أ، وأقرب ما تكون أنها: (ولم يأمر أن يغتسل مما أصاب).

واسع، يعلم من يليق به الغنى، ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها ويتزلها منازلها.

وتدل الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ أن المشركين بعدما كانوا هم الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول الله والمؤمنين، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة، ثم نزلت هذه الآية.

ولما مات النبي ﷺ أمر أن يجلبوا من الحجاز، فلا يبقى فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعد كل كافر عن المسجد الحرام، فيدخل في قوله ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾

﴿٢٩٩﴾ ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم. ولا يحرمون ما حرم الله، فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه ما بين دين مبطل، وهو الذي لم يشعه الله أصلاً، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد ﷺ، فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم أهل كتاب.

وعنى ذلك القتال ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كل

على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عن يد﴾ أي: حتى يبذلوها<sup>(١)</sup> في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادماً ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم، ﴿وهم صاغرون﴾.

فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجزأها عليهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم، وتوجب ذلهم وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.

وإذا بان لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا. واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب في أخذ الجزية وإقرارهم في ديار المسلمين، المجوس، فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس. وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون هذا القيد إخباراً بالواقع، لا مفهوم له.

ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية وليسوا أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين

بَنَاهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَرَاءِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِمْ  
وَمَا أَدْرَاكُمْ جِهَادَ الَّذِينَ فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ لَمِيَاقُونَ  
وَقَدْ عَاوَزُوا كِنَةَ الْكُفَرِ وَكَيْفَ وَأَمْرًا بِأَيْدِيهِمْ  
وَكَيْفًا بِأَيْدِي الْوَالِدِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْأَقْرَبِينَ وَرَسُولَهُ  
مِن قَضِيَّةٍ وَإِنْ يَكُونُوا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَاصْبِرُوا إِنَّ  
اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ يَأْتِيُونَكَ بِالْحَقِّ وَالْأَكْثَرُ وَالْمَلَأَ فِي الْأَرْضِ  
مِن رِزْقٍ وَلَا حَسِيرٍ ﴿٢٩٩﴾ وَيَنْهَى عَنْ عَهْدِ اللَّهِ لِمَنْ نَافَسَكَ  
مِن قَضِيَّةٍ لَمَّا تَرَكَ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقَاتِ  
فَلَمَّا نَافَسْتَهُمْ مِنْ قَضِيَّةٍ يَجْلِبُونَ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُرْضُونَ  
﴿٢٩٩﴾ فَأَقْبَمَتْهُمَا فِي تَوَلِّيهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْتَهُنَّ بِمَا أَخْلَقُوا  
اللَّهُ مَا وَعَدُوهُ وَيَأْتِيكَ أَنْ تَكُونُوا ﴿٢٩٩﴾ أَلَمْ يَكُنْ  
أَنَّ اللَّهَ يَدْعُ بِنِسْبَةِ هَذِهِ وَيَنْهَى عَنْ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ  
الْعُرْبِيَّ ﴿٢٩٩﴾ أَلَيْسَ بِالْمُرُورِ بِالْمُطْرِبِينَ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ فِي الْقَضِيَّةِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ لِأَحْسَنِ  
فِي حَرْبِهِمْ مِنْهُمْ سِجْرَةَ اللَّهِ فِيهِمْ وَهُمْ عَدَائِلٌ لِمِ اللَّهِ ﴿٢٩٩﴾

كتابي وغيره.

﴿٣٠ - ٣٣﴾ وقالت اليهود عزيز

ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهنون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون \* اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون \* يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون \* هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون \* لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، ذكر من أقوالهم الخبيثة، ما يهيج المؤمنين الذين يخارون لربهم ولدينه على قتالهم، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾ وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبيث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرؤوا فيها على الله، وتنقصوا عظمته وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادعائهم في «عزيز» أنه ابن الله، أنه لما سَلَطَ الله الملك<sup>(٢)</sup> على بني إسرائيل، ومزقهم كل ممزق، وقتلوا حلة التوراة، وجدوا

(١) كذا في ب، وفي أ: يبذلونها. (٢) في ب: أنه لما تسلط الملوك.

وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئاً.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ الذي هو العلم النافع ﴿ودين الحق﴾ الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتتلاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب، والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يصاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرّة للقلوب والأبدان والدينا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الفوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعده الله لا بد أن يتجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعبذاب أليم \* يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها

حرم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

وكانوا أيضاً يغفلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبايح والدعاء والاستغاثة.

﴿والمسيح ابن مريم﴾ اتخذوه إلهاً من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله فما ﴿أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً.

﴿سبحانه﴾ وتعالى ﴿عما يشركون﴾ أي: تنزهه وتقدس، وتعالى عظمته عن شركهم وافتراءهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدس.

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه، أخبر أنهم ﴿يريدون﴾ بهذا ﴿أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾.

ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماء الله نوراً، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عذاه فإنه بضده، فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

﴿ويأبئ الله إلا أن يتم نوره﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريد به سوء، ولهذا قال: ﴿ويأبئ الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده



عزيراً بعد ذلك حافظاً لها أو لأكثرها، فأملأها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

﴿وقالت النصارى المسيح عيسى ابن مريم﴾ ابن الله ﴿قال الله تعالى ذلك﴾ القول الذي قالوه ﴿قولهم بأفواههم﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهاناً.

ومن كان لا يسبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي: قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿يضاهنون﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: «الملائكة بنات الله» تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان.

﴿قاتلهم الله أتى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين. وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تنفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكير وتسلط للعقل عليه، فإن لذلك سبباً وهو أنهم: ﴿اتخذوا أحبارهم﴾ وهم علماءهم ﴿ورهبانهم﴾ أي: العبّاد المتجردين للعبادة.

﴿أرباباً من دون الله﴾ يحلّون لهم ما

فيها منسوخ، أخذاً بعموم نحو قوله تعالى ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين.

ولا تخصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألوهم من الشر شيئاً.

ويحتمل أن ﴿كافة﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب التفسير على جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ الآية. ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سرهم وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿٣٧﴾ ﴿إنما النسبيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواظبوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ النسبيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بأرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحلال ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا

الواجبات و «النهي عن الشيء»، أمر بضده.

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يقول تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله﴾ أي: في قضائه وقدره ﴿اثنا عشر شهراً﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿في كتاب الله﴾ أي: في حكمه القدري، ﴿يوم خلق الله السموات والأرض﴾ وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثني عشر [شهرًا].

﴿منها أربعة حرم﴾: وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حرماً لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها.

﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهراً، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمر بطاعته، ويشكر الله تعالى على ميثقه بها، وتقيضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصاً مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم<sup>(١)</sup> لم ينسخ تحريمه عملاً بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال

ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتاً وظلماً، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفترهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهؤلاء الأخبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصددهم الناس عن سبيل الله.

﴿والذين يكتزون الذهب والفضة﴾ أي: يمسكونها ﴿ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿فبشرهم بعذاب اليم﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يوم يحمى عليها﴾ أي: على أموالهم، ﴿في نار جهنم﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدته.

﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعاً، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجها في

(١) في ب: الحرم.

عصى الله تعالى وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما قُت في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال:

﴿إِلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ولا تضره شيئاً﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو القيتموه وراءكم ظهرياً.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء أراد، ولا يغالبه أحد.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾ أي: إلا تنصروا رسوله عمداً ﷺ، فالله غني عنكم، لا تضره شيئاً، فقد نصره في أقل ما يكون وأذله ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فألجؤوه إلى أن يخرج.

﴿ثاني اثنين﴾ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إذ هما في الغار﴾ أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور<sup>(٢)</sup> في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يحظر على البال.

﴿إذ يقول﴾ النبي ﷺ ﴿لصاحبه﴾ أي بكر لما حزن واشتد قلقه،

قليلاً، والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي<sup>(١)</sup> اليقين من المبادرة لأمر الله، والمسارة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، ذ ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أنا قلتم إلى الأرض﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلا قليل﴾ أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور، وأنها أحق بالإيثارة؟

أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار.

فيأي: رأى رأيتم إشارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيها الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُد من أولي الألباب، ثم توعدهم على عدم النفي فقال:

﴿إِلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفي في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف قد

القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريثان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم مسؤهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤوا عدة ما حرم الله﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله.

﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم.

﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أنا قلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ \* ﴿إِلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضره شيئاً والله على كل شيء قدير﴾ اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزوة الروم، وكان الوقت حاراً، والزاد

(١) في ب، ودواعي.

(٢) في أ: (إلى غار حراء)، وفي ب: عدلت إلى: (غار ثور) وهو الصحيح فيبدو - والله أعلم - أنه سبق فلم.

﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ بعونه ونصره وتأييده .

﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي : الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للنفوس، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال : ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ .

﴿وأيدوه بجنود لم تروها﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرساً له، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ﴿أي : الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قارين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذة، حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه .

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر على قسمين : نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم .

والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع .

وقوله : ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ أي : كلماته القدريه وكلماته الدينيه، هي العاليه على كلمه غيره، التي من جملتها قوله : ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ ﴿إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر .

﴿والله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويؤخر نصر حربه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية .

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصه لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة

الجليلة، والصحة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكروا صحة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها .

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفتدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته .

وفيها : أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذمائه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة .

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ \* لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيجاً لهم على النفير في سبيله فقال : ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي : في العسر واليسر، والنشط والمكروه، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال .

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي : ابدلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك .

ثم قال : ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي : الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه .

لو كان خروجهم لطلب العرض القريب، أي : منفعة دنيوية سهلة

التناول ﴿و﴾ كان السفر ﴿سفراً قاصداً﴾ أي : قريباً سهلاً ﴿لاتبعوك﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿ولكن بعدت عليهم المشقة﴾ أي : طال عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تشاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال .

﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي : سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج، أن لهم أعذاراً، وأنهم لا يستطيعون ذلك .

﴿يهلكون أنفسهم﴾ بالتقعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ .

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في «غزوة تبوك» وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال :

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ \* لا يستدرك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليهم بالمتقين \* إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿عفا الله عنك﴾ أي : سامحك وغفر لك ما أجريت .

﴿لم أذنت لهم﴾ في التخلف ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك .

ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث،

فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر .

﴿والله عليم بالمتقين﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين، أنه أخبر، أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد .

﴿إنما يستأذنتك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾ أي : ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فذلك قلّت رغبتهم في الخير، وجبنوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال . ﴿فهم في ربهم يترددون﴾ أي : لا يزالون في الشك والحيرة .

﴿٤٦ - ٤٨﴾ ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فبطهم وقيل اتعدوا مع القاعدین﴾ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خيالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ يقول تعالى مبيّناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعدارهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر .

﴿و﴾ أما هؤلاء المنافقون فـ ﴿لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أي : لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج .

﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فبطهم﴾ قدراً وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إيعانهم، بل خذلهم ونبطهم ﴿وقيل اتعدوا مع القاعدین﴾ من النساء والمعدورين .

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال : ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خيالاً﴾ أي : نقصاً .

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أي : الشر .

ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي : هم حريصون على فتنكم وإلقاء العداوة بينكم .

﴿وفيكم﴾ أناس ضعفاء العقول

﴿سماعون لهم﴾ أي : مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتشبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم .

فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فله أتم الحكمة حيث نبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم بل يضرهم .

﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيعلم عباده كيف يجذرونهم، ويبين لهم من المفسد الناشئة من مخالطهم .

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال :

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي :

حين هاجرتم إلى المدينة، بذلوا الجهد، ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ أي : أداروا الأفكار، وأعملوا الخيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك، ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ ببطل كيدهم واضمحلال باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يجذر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم .

﴿٤٩﴾ ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي : ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في

التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول : ﴿ائذن لي﴾ في التخلف ﴿ولا تفتني﴾ في الخروج، فإني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس» .

ومقصوده - قبحه الله - الرياء والنفاق بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفاً عن

الشر .

قال الله تعالى مبيّناً كذب هذا القول : ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى وفتنة

عظمية محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجريء على الإثم الكبير، والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا تورعدهم الله بقوله : ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاً ولا خلاص .

﴿٥٠ - ٥١﴾ ﴿إن تصيبك حسنة تسؤهم وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

﴿٥١ - ٥٢﴾ ﴿إن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

﴿٥٢ - ٥٣﴾ ﴿إن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿إن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿إن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿إن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿إن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

﴿٥٧ - ٥٨﴾ ﴿إن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿إن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿إن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

﴿٦٠ - ٦١﴾ ﴿إن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يقول تعالى مبيّناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبتغضون للدين صرفاً : ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسؤهم﴾ أي : تحزنهم وتمهم .

إحدى الحسينيين ونحن نتريص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدنا فتريصوا إنا معكم متريصون ﴿أي: قل للمنافقين الذين يتريصون بكم الدوائر: أي: شيء تتريصون بنا؟ فإنكم لا تتريصون بنا إلا أمراً فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسينيين، إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الأخروي والدنيوي. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق، وأرفع المنازل عند الله.

وأما تريبصنا بكم - يا معشر المنافقين - فنحن تريبص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، لا سبب لنا فيه، أو بأيدنا بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم. ﴿فتريصوا﴾ بنا الخير ﴿إنا معكم متريصون﴾ بكم الشر.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ وما منعمهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴿يقول تعالى مبيناً بطلان نفقات المنافقين، وذاكراً السبب في ذلك﴾ ﴿قل﴾ لهم ﴿أنفقوا طوعاً﴾ من أنفسكم ﴿أو كرهاً﴾ على ذلك، بغير اختياركم. ﴿لن يتقبل منكم﴾ شيء من أعمالكم ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ خارجين عن طاعة الله، ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم، فقال: ﴿وما منعمهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي: متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس، ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر ثابت

القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهدن أنفسهم وهم كافرون﴾ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يمححون﴾ يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها، وأول بركاتها عليهم أن قدموها على مرضي ربهم، وعصوا الله لأجلها ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ والمراد بالعذاب هنا، ما يتألمه الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي - لما ألهمهم عن الله وذكره - صارت وبالاً عليهم حتى في الدنيا.

ومن وبالها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها، وإراداتهم لا تتعداها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم، ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصيب، فيوجب ذلك أن يتقلوا من الدنيا وتزهدن أنفسهم وهم كافرون.

فأي: عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة.

﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم﴾ قصدهم في حلفهم هذا أنهم ﴿قوم يفرقون﴾ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم. فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تبرؤوا منهم، فيتخطفهم الأعداء من كل جانب.

وأما حال قوي القلب ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك على بيان حاله، حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خلع عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.



ثم ذكر شدة جبنهم فقال: ﴿لو يجدون ملجأ﴾ يلجؤون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿أو مغارات﴾ يدخلونها فيستقرون فيها ﴿أو مدخلاً﴾ أي: محلاً يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿لولوا إليه وهم يمححون﴾ أي: يسرعون ويهرعون، فليس لهم ملكة يقتدرون بها على الثبات.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿ومنهم من يلزمك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسينا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴿أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيبيهم لقصد صحيح، ولا لرأي: رجيع، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها.﴾ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴿وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون رضاه وغضبه، تابعا لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعاً لمرضاة ربه، كما قال النبي ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به﴾.

وقال هنا: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي: أعطاهم من قليل وكثير. ﴿وقالوا حسينا الله﴾

القادر على الكسب لطلب العلم، أعطى من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

وقالوا أيضاً: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه، [وفيه نظر]<sup>(١)</sup>.

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فريضة من الله﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿والله عليم حكيم﴾ واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:

أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير والمسكين ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامّة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الشغور، ويجاهد به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ يخلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين \* ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿الذين يؤذون النبي﴾ بالأقوال الردية، والعيب له ولدينه، ﴿ويقولون هو أذن﴾ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذى للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا، لأنه أذن، أي: يقبل كل ما يُقال له، لا يميز بين صادق وكاذب،

ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنياً، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عمالتهم، وهي أجره لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفعة قلوبهم، المؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعطية قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التآلف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعاونون على ذلك من الزكاة، وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى، ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالاً، لدخوله في قوله: ﴿وفي الرقاب﴾.

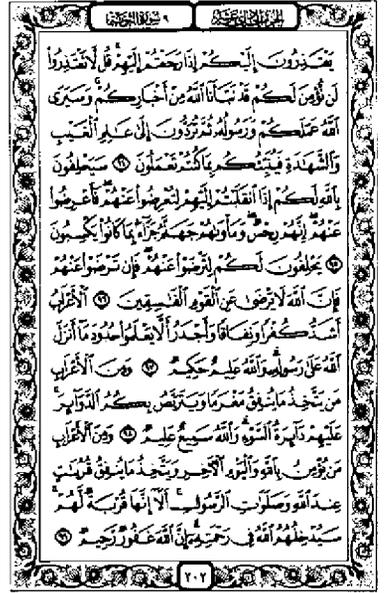
السادس: الغارمون، وهم تسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وقتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بما يبذل لأحدهم أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً.

والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يُوفى به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة للتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح أو دابة، أو نفقة له ولعبياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ



أي: كافينا الله، فنرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ أي: متضرعون في جلب منافعنا ودفع مضارنا، لسلموا من النفاق ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية، ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿إنما الصدقات﴾ أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد، لا يخص بها أحد دون أحد.

أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف.

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان، فالفقير أشد حاجة من المسكين، لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر،

(١) زيادة من هامش: ب.

وقصدهم - فجهم الله - فيما بينهم، أنهم غير مكثرين بذلك، ولا مهمين به، لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.

فأسأؤوا كل الإساءة من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضاً بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

ومنها: قدحهم في عقل النبي ﷺ وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً، وأنعم إدراكاً، وأثبهم رأياً وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَذْنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً.

وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم<sup>(١)</sup>، وامثاله لأمر الله في قوله: ﴿سَيُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَعَارِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾.

وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين الصادقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيراً يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، ﴿وَرَحِمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ فإنهم به يتدون، وبأخلاقه يقتدون.

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة، بل ردوها، فخرسوا دنياهم وأخرتهم، ﴿وَالَّذِينَ يَسُودُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالقول أو الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذبه وشاقه.

﴿يُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ فيتبرؤوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغابتهم أن ترضوا عليهم. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا

مؤمنين﴾ لأن المؤمن لا يقدم شيئاً على رضا ربه ورضا رسوله، فدل هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غير الله ورسوله.

وهذا محادة لله ومشاققة له، وقد توعد من حاده بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ مِحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي<sup>(٢)</sup>: يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله، وتجرأ على محارمه.

﴿فَأَنْ لَه نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم التعميم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم عياداً بالله من أحوالهم<sup>(٣)</sup>.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ ﴿يُحَذِّرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنْ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا يُحَذِّرُونَ﴾ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعتب بطائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ كانت هذه السورة الكريمة تسمى «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أستارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

إحداهما: أن الله سيثير بحج المستر على عباده.

والثانية: أن الدم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف.

قال الله تعالى: ﴿لَشَنَّ لِمُ يَنْتَهِي الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لِتُفْرِكَنَّهُمْ مِنْكُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَفَتُؤْمِنُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وقال هنا: ﴿يُحَذِّرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾



أي: تحبرهم وتفضحهم، وتبين أسرارهم، حتى تكون علانية إبادته، ويكونوا عبرة للمعتبرين.

﴿قُلْ اسْتَهِزُّوا﴾ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية. ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تُحَذِّرُونَ﴾ وقد وثق تعالى بوعدته، فأنزل هذه السورة التي بينتهم وفضحتهم وهتكت أستارهم.

﴿وَلَشَنَّ سَأَلْتَهُمْ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء» - يعنون النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطوناً، أو أكذب السنأ<sup>(٤)</sup>، وأجبن عند اللقاء» ونحو ذلك.

ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم، جاؤوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: نتكلم بكلام لا قصد لنا به، ولا قصدنا الطعن والعيب.

قال الله تعالى - مبيناً عدم عذرهم وكذبهم في ذلك -: ﴿قُلْ لَّهُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَآيَاتُ رَسُولِهِ﴾ كنتم تستهزؤون﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم

(١) في النسخين: بشأنه.

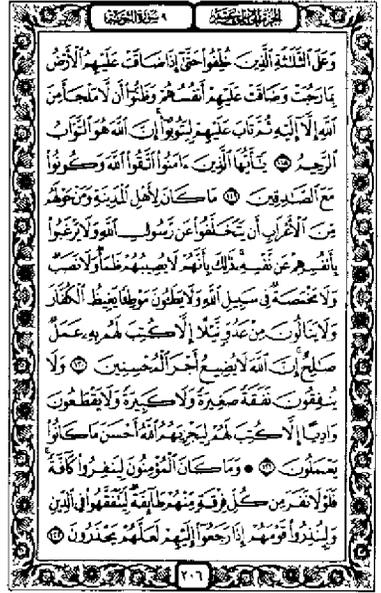
(٢) في ب: بأن.

(٣) في ب: حالهم.

(٤) زيادة من هامش ب.







النواب، فدعا له النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تتنامى حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة.

ففقده النبي ﷺ فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبية، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فلما لم يعطهم جاؤوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «يا وريح ثعلبية يا وريح ثعلبية» ثلاثاً.

فلما نزلت هذه الآية فيه، وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بزكاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان<sup>(١)</sup>.

﴿٧٩-٨٠﴾ \* الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجهدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم \* استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقابلاً، إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلما حثَّ الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبدلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم المكش، ومنهم المقل، فيلمزون المكش منهم، بأن قصده بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا

الغيوب﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لئن آتانا من فضله﴾ من الدنيا فسطها لنا ووسعها ﴿لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ فنصل الرحم، ونفري الضيف، ونعين على نواب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿فلما آتاهم من فضله﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بخلوا به وتولوا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وهم معرضون﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير. فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ مستمراً ﴿إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدهو وبما كانوا يكذبون﴾.

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف».

فهذا المنافق الذي وعند الله وعاهده، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبية» جاء إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه ليتصدقن، ويصل الرحم، ويعين على

ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة.

﴿وإن يتولوا﴾ عن التوبة والإنابة ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾ في الدنيا بما يتألمون من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه، واعزاز نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير.

﴿وما لهم في الأرض من ولي﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فنمَّ أصناف الشر والخسران، والشقاء والحرمان.

﴿٧٥-٧٨﴾ \* ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين \* فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون \* فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدهو وبما كانوا يكذبون \* ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام

(١) قصة ثعلبية هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد ضعفها جهاينة أهل الحديث كابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والهيتمي، والعراقي، وابن حجر، والسيوطي والمناوي وغيرهم - رحمهم الله -، وبينوا أن في إسناده علي بن يزيد، وهو ضعيف كما أن من رواهها: معان بن رفاعه، والقاسم بن عبد الرحمن وهما ضيفان، وذكر ابن حزم تضعيفها من جهة متنها أيضاً. ينظر المحلى: (٢٠٨/١١)، والإصابة: ترجمة ثعلبية، ومجمع الزوائد (٣٢/٧)، والجامع لأحكام القرآن (٢١٠/٨)، وفيض القدير (٢٥٧/٤)، وفتح الباري (٨/٣)، ولباب النقول للسيوطي (١٢١) وتخريج الإحياء للعراقي (٣٣٨/٣).

من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه .

﴿وقالوا﴾ أي: المنافقون ﴿لا تنفروا في الحر﴾ أي: قالوا: إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية الثابتة .

وحذروا من الحر الذي بقي منه الظلال، ويذهب البكر<sup>(١)</sup> والأصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية .

ولهذا قال: ﴿قل نار جهنم أشد حرألو كانوا يفتقون﴾ لما أثروا ما يفنى على ما يبقى، ولما فروا من المشقة الحفيفة المنقضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة .

قال الله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليكوا كثيراً﴾ أي: فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها، فسيكون كثيراً في عذاب أليم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والتناق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم .

﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يجزئوا على تخلفهم ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ لغير هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة . ﴿فقل﴾ لهم عقوبة ﴿لن نخرجوا معي أبداً ولن نقاتلوا معي عدوا﴾ فينتهي الله عنكم .

﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ فإن المتأثر المتخلف عن الأمور به عند انتهاز الفرصة لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه .

وفيه أيضاً تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من المنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان

جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم .

﴿٨٠﴾ ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ على وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها .

﴿فلن يغفر الله لهم﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً .

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين صار الفسق لهم وصفاً، بحيث لا يجتازون عليه سواء ولا يبغون به بدلاً، يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك .

﴿٨١-٨٣﴾ ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرألو كانوا يفتقون \* فليضحكوا قليلاً وليكوا كثيراً﴾ بما كانوا يكسبون \* فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن نخرجوا معي أبداً ولن نقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ يقول تعالى مبيناً تبيح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان .

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبيح به .

﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على تخلفهم وتأسقرو غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم

للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزله تعالى: ﴿الذين يلمزون﴾ أي: يعيبون ويطنون ﴿المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ فيقولون: مراؤون، قصدهم الفخر والرياء .

﴿و﴾ يلمزون ﴿الذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم ﴿فيسخرون منهم﴾ .

فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة عاذير .

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ .

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالى وبغض للدين .

ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح .

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي [هو] إغاثته وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه .

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مراء، غلظ فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي: شر أكبر من هذا؟! .

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: «الله غني عن صدقة هذا»، كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفقرون إليه، فالله - وإن كان غنياً عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ وفي هذا القول من التشبيط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان

(١) في ب، عدلت الكلمة إلى البكور .

نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تَوَافِقُوا إِيَّاهُ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْعِلْمِ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بَسَلُوا عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ .

وقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ .

﴿٩٠ - ٩٣﴾ ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ \* ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم \* ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون \* إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضا بأن يكونوا مع الخوالم وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴿يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ﴾ أي: جاء الذين هموا بآذنين، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباينين في الاعتذار لجفائهم وعدم حياتهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف .

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، ففعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر .

﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة .

لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

﴿ليس على الضعفاء﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال . ﴿ولا على المرضى﴾

الخوالم وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴿يقول تعالى: في بيان استمرار المنافقين على التناقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله . ﴿استأذنتك أولوا الطول منهم﴾ يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويمجدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أيوا إلا التكاثر والاستئذان في السعور ﴿وقالوا ذرنا نحن مع الفاعدين﴾ .

﴿٨٧﴾ قال تعالى: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالم﴾ أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقها حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال .

﴿٨٨ - ٨٩﴾ ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الجنات وأولئك هم المفلحون﴾ \* أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴿يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فأنه سيخني عنهم، والله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرسول﴾ محمد ﷺ ﴿والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ غير متناقلين ولا كسولين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وأولئك لهم الجنات﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب .

﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾ فبأن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ونبيه وأخراه، وهذا

ذلك توبيخاً لهم، وعاراً عليهم ونكالاً أن يفعل أحد كفعلهم .

﴿٨٤﴾ ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ من المنافقين ﴿ولا تقم على قبره﴾ بعد الدفن لتدعوله، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعاة منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعاة .

﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ ومن كان كافراً ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعاة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصل عليه .

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للتعزية لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تعييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متفرداً في المؤمنين .

﴿٨٥﴾ ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كفرون﴾ أي: لا تتعجب بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم . ﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا﴾ .

فيتعيبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهتؤون بها .

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿وتزهد أنفسهم وهم كفرون﴾ قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متملقة، وأفئدتهم عليها متحرقة .

﴿٨٦ - ٨٧﴾ ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنتك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نحن مع الفاعدين﴾ \* رضوا بأن يكونوا مع

﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

واعلم أن المسمى المذنب له ثلاث حالات: إما [أن] يقبل قوله وعذره، ظاهراً وباطناً، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقرر أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم﴾ أي: لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم.

﴿إنهم رجس﴾ أي: إنهم قدر خبثاء، ليسوا بأهل لأن يبالي بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيداً فيهم، ﴿ولا تكفهم عقوبة جهنم﴾ أي: كانوا يكسبون.

وقوله: ﴿يخلفون لكم لترضوا عنهم﴾ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يجربون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئاً.

﴿فلن ترضوا عنهم﴾ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴿أي: فلا ينبغي لكم﴾ أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه ورضاه.

وتأمل كيف قال: ﴿فلن ترضوا عنهم﴾ أي: لا يرضى عن القوم الفاسقين ولم يقل: ﴿فلن الله لا يرضى عنهم﴾ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله

وهو أن من نوى الخير، واقترب بنيته الجازمة سعي فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿إنما السبيل﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين ﴿يستأذنونك وهم أغنياء قادرين على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رضوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بأن يكونوا مع الخوالم﴾ كالتساء والأطفال ونحوهم.

﴿وإنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم﴾ أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدينية، ﴿فهم لا يعلمون﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا لن يؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس وما أوامهم جهنم جزء بما كانوا يكسبون﴾ يخلفون لكم لترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم - ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾ من غزاتهم.

﴿قل﴾ لهم ﴿لا تعتذروا لن يؤمن لكم﴾ أي: لن تصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي: لا يجدون زاداً، ولا راحة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا الله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا للجهاد، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعه، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في نفسه<sup>(٢)</sup> أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه عمن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسمى - كالقفرط، أن عليه الضمان.

﴿والله غفور رحيم﴾ من مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ فلم يصادفوا عندك شيئاً ﴿قلت﴾ لهم معتذراً: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ فإنهم عاجزون بالذلل لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله،

(١) في السختين: التي.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب واللوم يتأكد على الذين.

يتوب عليهم ويرضى عنهم .

وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضىه الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي .

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعداء في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حبا ولا كرامة لهم .

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية الرجس، وفي هذه الآيات، إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته [تعالى] وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين .

﴿٩٧ - ٩٩﴾ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليهم حكيم \* ومن الأعراب من يتخذ ما يتفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم \* ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم \* يقول تعالى: ﴿الأعراب﴾ وهم سكان البادية والبراري أشد كفراً ونفاقاً من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة :

منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أجرى ﴿وأجدر ألا يعلموا حدود

ما أنزل الله على رسوله﴾ من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات حسنة، وإزادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية .

وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، ويميلون أهل الإيمان، وبخالطونهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة، كفر ومانفون، ففي البادية أشد وأعظم مما في الحاضرة .

ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها .

﴿٩٨﴾ فمنهم ﴿من يتخذ ما ينفق﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿مغرماً﴾ أي: يراها خسارة ونقصاً، لا يحسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً .

﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم، فعليهم دائرة السوء .

وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبي الحسنة، ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره .

وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم ﴿من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان .

﴿ويتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾ أي: يحسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿و﴾ يجعلها وسيلة لـ ﴿صلوات الرسول﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبيناً لنفع صلوات الرسول: ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ تقرهم إلى الله، وتتمي

أموالهم وتحل فيها البركة . ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ في جملة عباد الصالحين إنه غفور رحيم، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عبادته برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عبادته المؤمنين برحمة يوفقه فيها إلى الخيرات، ويمحيهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع الثواب .

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، فلم المدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأثمهم في مظنة ذلك .

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال .

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر من يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك . فإن في معرفتها يتمكن من فعلها - إن كانت مأموراً بها<sup>(١)</sup>، أو تركها إن كانت محظورة - ومن الأمر بها أو النهي عنها .

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشراح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً، ولا تكون مغرماً .

﴿١٠٠﴾ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

(١) في ب: إن كانت مأمورة.

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ .

ومن مغفرتة أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأتابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية دلت<sup>(٢)</sup> على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحاً، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب .

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصراً على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف .

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمرأته بما يطهر المؤمنين، ويتم إيمانهم : ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿تطهرهم وتزكئهم بها﴾ أي : تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة .

﴿وتزكئهم﴾ أي : تميمهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الديني والآخرى، وتتمى أموالهم .

﴿وصل عليهم﴾ أي : ادع لهم، أي : للمؤمنين عموماً، وخصوصاً عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم .

﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ أي : طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم، ﴿والله سميعٌ لدعائك﴾، سمع إجابة و قبول .

﴿عليهم﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته دعا له وبركاً .

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأحوال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال

﴿لا تعلمهم﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة .

﴿نحن نعلمهم سنعمذبهم مرتين﴾ يحتمل أن الثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة .

ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن<sup>(١)</sup>، والكرهية لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار .

ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرره .

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿وأخسررون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ \* خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكئهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾ يقول تعالى : ﴿وأخرون﴾ عن المدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية، ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ أي : أقروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها .

﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرد على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ وتوبته على عبده نوعان : الأول : التوفيق للتوبة . والثاني : قبولها بعد وقوعها منهم .

﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي : وصفه المغفرة والرحمة، اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة .

بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة وبدروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد، وإقامة دين الله .

﴿من المهاجرين﴾ ﴿الذين، أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يتبعون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون﴾ .

﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾ ﴿الذين تبوءوا الدار والإيمان، [من قبلهم] يجزون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ .

﴿والذين تبعوهم بإحسان﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله .

﴿رضي الله عنهم﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ الجارية التي تساق إلى سقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة .

﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا يبغون عنها حولاً، ولا يطلبون منها بدلاً، لأنهم مهما تمنوه أدركوه، ومهما أرادوه، وجدوه .

﴿ذلك الفوز العظيم﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور .

﴿١٠١﴾ ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعمذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ يقول تعالى : ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مردوا على النفاق﴾ أي : غمرونا عليه، واستمروا وازدادوا فيه طغياناً .

(٢) في ب : دالة .

(١) في ب : والغم .

الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون \* لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين \* أؤمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين \* لا يزال بنيانهم الذي بنوا رية في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم \* كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعدون له يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصناً عند الاحتياج إليه، فبين تعال خزيم، وأظهر سرهم فقال: **﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾** أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه **﴿وكفراً﴾** أي: قصدهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان.

**﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾** أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، **﴿وارصاداً﴾** أي: إعداداً **﴿لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾** أي: إغاة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حراهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعبداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد وملاة، هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزبلة.

قال تعال بعدما بين من مقاصدهم

عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفار والشروء عن باب، ومواليتهم عدوهم.

**﴿الرحيم﴾** الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

**﴿١٠٥﴾** **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** يقول تعال: **﴿وقل﴾** لهؤلاء المنافقين: **﴿اعملوا﴾** ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

**﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾** أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، **﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

**﴿١٠٦﴾** **﴿وآخرون مرجعون لأمر الله إما يهديهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾** أي: **﴿وآخرون﴾** من المخلفين مؤخرون **﴿لأمر الله﴾** إما يهديهم وإما يتوب عليهم، ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم على التوبة والندم.

**﴿والله عليم﴾** بأحوال العباد ونياتهم **﴿حكيم﴾** يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

**﴿١٠٧ - ١١٠﴾** **﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا**

تسمى ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالتخوب، والشمار، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل، فإنها تحب فيها الزكاة، وإلا لم تحب فيها، لأنها إذا كانت للقنية، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالا يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالقنية ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها. وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهراً، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه.

وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحاً بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

**﴿١٠٤﴾** **﴿لم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾** أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه يقبل التوبة عن عباده **﴿التائبين من أي﴾** ذنب كان، بل يفرح تعال بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر.

**﴿ويأخذ الصدقات﴾** منهم، أي: يقبلها ويأخذها بيمينه، فيريها لأحدهم كما يري الرجل فلوله، حتى تكون التمرة الواحدة كالجلبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

**﴿وأن الله هو التواب﴾** أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية]<sup>(١)</sup> مراراً. ولا يحمل الله من التوبة على

الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قبا» حتى قال الله فيه : ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ .

ولهذا كان لمسجد قبا من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قبا كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه .

ومنها : أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي :

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية الله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه .

ومنها : أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفعالها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والخسرات .

ومنها : أنه إذا كان مسجد قبا مسجداً أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى .

ومنها : أن العمل المبني على الإخلاص والتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم .

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين .

﴿١١١﴾ ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة

فجمع في عمله بين الإخلاص والتابعة، ﴿خير أم من أسس بنيانه على شفا﴾ أي : على طرف ﴿جرف هار﴾ أي : بال، قد تداعى للانهدام، ﴿فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم .

﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أي : شكاً وريباً ماكنثاً في قلوبهم، ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ بأن يتدموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، وتفاقاً إلى نفاقهم .

﴿والله عليم﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنه .

﴿حكيم﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى، إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فله الحمد<sup>(١)</sup> .

وفي هذه الآيات فوائد عدة :

منها : أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه .

ومنها : أن العمل وإن كان فاضلاً تغيره النية، فينقلب منهياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى .

ومنها : أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها .

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنتهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله .

ومنها : النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها .

ومنها : أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك

الفاسدة في ذلك المسجد ﴿وليحلفن إن أردنا﴾ في بنائنا إياه ﴿إلا الحسنى﴾ أي : الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير .

﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ شهادة الله عليهم أصدق من حلفهم .

﴿لا تقم فيه أبداً﴾ أي : لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضراً أبداً، فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه .

﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ ظهر فيه الإسلام في «قبا»، وهو مسجد «قبا»، أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديماً في هذا عريقاً فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ وتتعبد، وتذكر الله تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله : ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والسنجاسات والأحداث .

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً لا بد أن يسعى له ويمتهد فيما يجب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، ومن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله .

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم .

﴿والله يحب المطهرين﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث .

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال : ﴿أقمن أسس بنيانه على تقوى من الله﴾ أي : على نية صالحة وإخلاص ﴿ورضوان﴾ بأن كان موافقاً لأمره،

(١) كذا في ب وفي أ : وأمر به، الحمد .

ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم \* وما كان استنصار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم \* يعني : ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به \* أن يستغفروا للمشركين \* أي : لمن كفر به وعبد معه غيره \* ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم \* فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين .

وأيضاً فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه ورضاه، ويوالوا من والاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه \* عن موعدة وعدها إياه \* في قوله : \* سأستغفر لك رب إن كان بي حقيقاً \* وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه .

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير \* تبرأ منه \* موافقة لربه وتادياً معه .

إن إبراهيم لأواه \* أي : رجوع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه .

\* حليم \* أي : ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستغزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له : \* لأرجمك \* وهو يقول له : \* سلام عليك سأستغفر لك رب \* .

فعليكم أن تقتدوا وتتبعوا ملّة إبراهيم في كل شيء \* إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك \* كما نهكم الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال :

\* ١١٥ - ١١٦ \* \* وما كان الله

المؤمنين \* كأنه قيل : من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات وتبيل الكرامات؟ فقال : هم \* الثائبون \* أي : الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات .

\* العابدون \* أي : المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدین .

\* الحامدون \* الله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار .

\* السائحون \* فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبه، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة : السفر في القربيات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلوة الأقارب، ونحو ذلك .

\* الراكعون الساجدون \* أي : المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود .

\* الأمور بالمعروف \* ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات .

\* والناهون عن المنكر \* وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه .

\* والحافظون لحدود الله \* بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً .

\* وبشّر المؤمنين \* لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدنن والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن .

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين، وإيمانهم، قوة، وضعفاً، وعملاً بمقتضاه .

\* ١١٣ - ١١٤ \* \* ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين

عظيمة، ومعاضة جسيمة، وهو أنه \* اشترى \* بنفسه الكريمة \* من المؤمنين أنفسهم وأموالهم \* فهي الثمن والسلعة المبيعة .

\* بأن لهم الجنة \* التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات، والأفراح، والمسرات، والخور الحسان، والمنازل الأنيقات .

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه فيقتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون \* فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات .

\* وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن \* التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق .

\* ومن أوفى بعهده من الله فاستشروا \* أي المؤمنون القائمون بما وعدكم الله، \* ببيعكم الذي بايعتم به \* أي : لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضاً، ويحث بعضكم بعضاً .

\* وذلك هو الفوز العظيم \* الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان .

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأبي : كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق .

\* ١١٢ \* \* الثائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر

أمر مزرع، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضاء رسوله على كل شيء.

﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: أذن في توبتهم ووقفهم لها ﴿ليتوبوا﴾ أي: لتتبع منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إن الله هو التواب﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿الرحيم﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتد عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم وتشبثهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة. ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب ولا يخرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس يعازر عليهم فقال: ﴿خلفوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين

الأرض بما رحبت وضائق عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ﴿تاب على النبي﴾ محمد ﷺ ﴿والمهاجرين والأنصار﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورفاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال: ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك»<sup>(١)</sup> وكانت في حر شديد، وضيق من الزراد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزيغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفراً، وإن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله: ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ ومن رأفته ورحمته أن من عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.

﴿و﴾ كذلك لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحبه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

﴿حتى إذا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي: على سمعتها ورحبها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاقت عليهم القضاء الواسع، والمحجوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من

ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى بين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم \* إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يعني أن الله تعالى إذا من على قوم بالهداية، وأمرهم بسلك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى بين لهم ما يتقون﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تتفنون.

﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي: هو المالك لذلك، المذبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بالهتية، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده!!؟

فلهذا قال: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو نصير يدفع عنكم المضار.

﴿١١٧ - ١١٨﴾ ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

(١) في ب: غزوة تبوك.

عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتفوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿طائفة﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿ليتفقها﴾ أي: القاعدون ﴿في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأى: منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي: نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً.

وفي هذه الآية أيضاً دليل وإرشاد وتنبه لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم وديارهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصود واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

﴿١٢٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم

وراحتها، وسكونه﴾ عن نفسه ﴿الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يقدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبتته والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ذلك بأنهم﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿لا يصيبهم ظمأ ولا نصب﴾ أي: تعب ومشقة ﴿ولا مخمصة في سبيل الله﴾ أي: مجاعة.

﴿ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم، ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوا فيها، ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

﴿١٢٢﴾ ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقها في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ يقول تعالى: - منبهاً لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم - ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي: جميعاً لقتال

خلفوهم، [أو خلفوا عن من بُت في قبول عدوهم أو في رده] <sup>(١)</sup> وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: «تخلفوا».

ومنها: أن الله تعالى منَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم فقال:

﴿١١٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، باجتنب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿وكونوا مع الصادقين﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خلية من الكمال والفتور، سالمة من المفاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ الآية.

﴿١٢٠ - ١٢١﴾ ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى - حائلاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم -: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم.

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم﴾ في بقائهم

غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴿ وهذا أيضاً إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبديون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات.

﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يُعِثْكُمْ وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ خصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جداً.

﴿١٢٤ - ١٢٦﴾ ﴿وإذا ما أنزلت سورة فممنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ يقول تعالى: مبيناً حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فيها الأمر، والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿فممنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً﴾ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين.

قال تعالى - مبيناً الحال الواقعة -: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ بالعلم بها، وفهمها واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر.

﴿وهم يستبشرون﴾ أي: يبشرون بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم وآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة

انقيادهم لما تحثهم عليه.

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي: مرضاً إلى مرضهم، وشكاً إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿والتطبع على قلوبهم، حتى﴾ ماتوا وهم كافرون ﴿.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

قال تعالى - موبخاً لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق -: ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ بما يصيبهم من البلياء والأمراض، وبما يتتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ثم لا يتوبون﴾ عما هم عليه من الشر ﴿ولا هم يذكرون﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

فإنه تعالى يبتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالآوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجده وينميه، ليكون دائماً في صعود.

﴿١٢٧﴾ وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني: أن المنافقين الذين يجذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾



متسلسلين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صرف الله قلوبهم﴾ أي: صدها عن الحق وخذلها.

﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ فقهاً يتفهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت﴾.

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ فإن تولوا فقلل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ يمتن [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﴿يعزيبهم﴾ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويمتكم.